

قدم حنا زكريا المرستلى الصياد الفقير القوى الشجاع الماهر فى شكل مميز وشخصية منفردة وجديدة فى الأدب العربى الحديث . حقا إنه يخاطب سمكته « الانتياسة » الكبيرة كما يخاطب امرأة ، كما كان يفعل « ستياجو » بطل « هيمنجواى » مع سمكته الكبيرة فى « العجوز والبحر » . وإنه ليتحدى الحوت الضخم الذى يهدد الميناء ويفر منه الجميع كما يفعل « آخاب » بطل هرمان ملفل فى « موى ديك » ولكنه يتفوق عليها معاً بإحرازه للنصر الحاسم على السمكة الكبيرة والحوت الضخم وبتجربته الفريدة فى الغابة .

كان الحوت محاصراً فى دائرة الميناء كالوحش الهائل الهائج ، يضرب المياه بعنف ويحطم السفن ويفتت الصخر . فقفز عليه زكريا ، وربطه بالحبال والسلاسل الحديدية . ورقص فوقه متحدياً رعب الجميع وخوفهم ، ومصمماً على الانتصار على الحوت أو الموت قائلاً : « هذه هى سمكتك الكبيرة التى تحلم بها يا زكريا ، انزل إليها .. اربطها بجبال حديدية ، أوقف وأنت تصارعها .. مت كما يليق بصياد حقيقى ، أو اربطها وأخرجها » ^(١١) وجر الحوت إلى الشاطئ وأراد أن يتمنع بانتصاره الإنسانى غير أن التجار استعجلوا استغلال لحم الحوت وزيت عظامه . ولكنه أراد الاحتفاظ به أطول مدة ممكنة ، لأن فى انتصاره عليه فى البحر تعويض عن مهانته فى البر . وذهب إلى حانة اليونانى زخريادس متشياً بانتصاره طالباً النبيذ خمر النصر . فرفض زخريادس بيعه النبيذ مقابل النقود ، مشروطاً أن يحضر إليه زكريا بطرخ السمكة ، وأن يدعه يشرب كل ما يريد من النبيذ . وبعد أن رقص حول الحوت وشرب مع الصيادين ، أشعلوا النار ، وأخرج بنجنجره كل ما فى جوف الحوت لزخريادس ، الذى نال مع البطارخ مجوهرات ذهبية وماسية ابتلعها الحوت . وحرصه الصيادون على زخريادس ليأخذ منه بعض حقه ، فلما رفض زخريادس دفعوه إلى قتله ، فقتله وفر إلى البحر ثم إلى الغابة ، فالبحر هو خلاصه وفى الطبيعة انعتاقه الروحى .

وكما قدمت روايته « الشراع والعاصفة » شخصية بطلها المعلم البحار محمد الطروسى كذلك يفعل حنا مينه فى « الباطر » بإبداعه شخصية الصياد زكريا المرستلى . شخصية فذة تجمع بين خبرات الأديب الواقعى ورومانسية الفنان وخياله المبدع . شخصية توافقه إلى الانطلاق فى البحر بحاراً فوق سفينة ، أو الحياة فى مياهه حتى ليتمنى أن يتحول إلى كلب بحر أو سمكة ليعيش فى أعماق البحر . فهل هى عودة إلى دعوة الهروب من المدينة الآلية المكتظة الظالمة التى عرفها أدب

(١١) حنا مينه . الباطر ، ص ١٣ .